

الباب الثاني

النقد في صدر الإسلام وبني أمية

ويحتوي على ثلاثة فصول

الفصل الأول : العصر الإسلامي ، عمر بن الخطاب ومذهبه

النقدي

الفصل الثاني : النقد في العصر الأموي ، الاتجاهات العامة في

نقد الأمويين .

الفصل الثالث : التناقض وأثرها في توجيه النقد .

الفصل الأول

العصر الإسلامي :

يمتد هذا العصر من ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية ، وفيه تعاقبت ثلاثة أجيال ، وقد تعود مؤرخو الأدب أن يسموا فترة الجيل الأول بعصر صدر الإسلام وفترة الجيل الثاني والثالث بالعصر الأموي .

وحقاً تختلف الفترتان ، فقد نشأ الجيل الأول في الجاهلية ، ولذلك كان اتصاله بها أوضح وأعمق من اتصال الجيلين الثاني والثالث ، بينما يتفوق عليه هذان الجيلان في الاتصال بالحضارات الأجنبية .

وكان أهم ما تفاعل معه الجيل الأول دين الإسلام الحنيف ، الذي وضع له مثالية خلقية جديدة ، وفرض عليه تكاليف دينية ، وارتفع بتفكيره في ربه ، فقد جاء الإسلام والعرب في جاهليتهم يبغون ، وفي ظلال هذه الجاهلية يعيشون ، فبدلهم الإسلام وأخذ بأيديهم إلى عهد جديد له قيم جديدة ومفاهيم مختلفة ، ولكن ما أثر هذا في الشعر والنقد ؟

أما الشعراء فإنه تأثر بالمثالية الروحية الجديدة ، وخاصة حين كان شعراء المدينة يناضلون شعراء مكة قبل فتحها ، ويترامون معهم بسهام الهجاء علي نحو ما هو معروف عن حسان بن ثابت . :

كان يستشعر الدين الجديد ويمدح الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ودعوته .

ويلقانا من حين إلى حين في هذه الفترة - فترة صدر الإسلام - شعر فيه خشوع وتبذل لله ، أو فيه مثالية الإسلام ، علي أن من الشعراء من ظلوا بعيدين عن روح الإسلام علي نحو ما هو معروف عن الحطيئة - فقد ظل يهجو علي طريقة أسلافه ويقذف الناس بحجارة الهجاء المقذعة ومثله عبدة بن الطبيب وأبو محجن الثقفي إذ نراهما ينظمان في الخمر التي حرمها الإسلام ، وحرّم معها جملة الآثام التي كان يرتكبها العرب في الجاهلية .

أما النقد فقد ظل علي النهج السابق نفسه فهو ما يزال نقداً ذاتياً تأثرياً يعتمد في أحكامه علي السليقة والفطرة ، ويتخذ من الذوق هادياً له فيما يبدي من آراء إلا ما ظهر من نقداً معللة غير أنها كانت نادرة جداً ولذلك إذا زعمنا أن النقد لم يتغير ولم ينشط في هذه الفترة كنا مصيبين فقد شغل العرب عن الشعر بالقرآن والفتوح إلا ما قيل في المعارك ، وقد كان المشركون يحاربون الله ورسوله ، ويهجون المسلمين في الأندية والمجاس ويتهاجون بالأشعار والخطب واشتعلت معارك السنان والطعان مع معارك اللسان والبيان .

ودعا رسول الله - صلي الله عليه وسلم - الشعراء من الأنصار إلي المشاركة في هذه المعارك وقال لهم : ' ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بأسيا فهم أن ينصروه بالسنتهم " فهب نفر من شعراء الأنصار يدافعون عن الإسلام ويذودون عن حياضه ويشيدون بذكره ، وينشرون من مبادئه الكفار والمشركين .

وقد رأينا الرسول - صلي الله عليه وسلم - يستمع إلي الشعر ويستجده ويستشده أصحابه ويثيب عليه ، بل وجدناه - صلي الله عليه وسلم - ينقده ويصلح منه وترخر سيرة المصطفى - صلي الله عليه وسلم - بلمحات رائعة صدرت معبرة عن وجهة نظره في بعض ما أنشد علي مسامعه الشريفة من أشعار ، وبالتأمل في تلك اللمحات نجد لها تتلاءم من كل الوجوه مع المنطلق الذي وظف فيه رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ألا وهو النبوة والرسالة ، وكفي بهذا من الرسول تشجيعاً علي النقد ودفعاً له ، وفتحاً لبابه .

وقد وجدنا الشعراء يبذلون من أغراض شعرهم ، فإذا بهم يوجهون فنون قولهم إلي الإشادة بتلك المبادئ الإسلامية التي جاء بها الإسلام ، وتمجيد تلك الفضائل والمكارم التي أقرها ، من الكرم والشجاعة والنجدة وحسن الجوار والتسامح والتواضع والعدل والإحسان المجموعة كلها في " المروءة " وكان شعراء المشركين

يتجهون في شعرهم إلي نقض هذه المبادئ ، فقامت المناقضات الشعرية بين الفريقين ، وكان في هذه النهضة الشعرية .
وكان اشتعال نار تلك المناقضات القولية شحذاً لملكة النقد وتوسيعاً لدائرته ، وبذلك خطا النقد الأدبي في هذا العصر خطوة واسعة ، إذ اتسع بهذه النهضة الإسلامية مجاله ، ووجد في هذه الدواعي الجديدة داعياً له وحافزاً إليه وكان فيما يباشره الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بعده أعظم تشجيع عليه .

وفي كتب الأدب والتاريخ روايات كثيرة تدل علي أن الرسول الكريم قد استمع إلي الشعر واستنشدته ورواه وحفظه وكافأ عليه ونقده ومن ذلك أنه :

(أ) حين سمع قول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قال (صلى الله عليه وسلم) : هذا من كلام النبوة .

(ب) قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً) وقيل لحكمة ، وذلك بعدما سمع بعضاً من الشعر وأعجب به ، فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله عليه وسلم ، وجعل من الشعر حكمة .

ونري هنا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد بني رأيه هذا في الشعر ناظراً إلي ناحيتين :

الأولي : ما احتواه من حكمة ومعني حسن
الثانية : ماله من لفظ حسن وأسلوب جميل يأسر النفس ويسبي
القلب .

(ج) ذكر ابن رشيقي في " العمدة " في باب (من قضى له الشعر ومن
قضى عليه) قال :
(أنشد النابغة الجعدي بين يدي رسول الله عليه وسلم قصيدة يقول
فيها :

علونا السماء عثة وتكرما ^(١) وإنا لنبقي فوق ذلك مظهراً
فغضب النبي (صلي الله عليه وسلم) ، وقال : أين المظهر يا أبا
ليلى ؟ فقال الجنة بك يا رسول الله ، فقال له النبي صلي الله عليه
وسلم أجل إن شاء الله ^(٢)
فكان الرسول قد اطمأن إلي أنه حين عبر بمجد جدوده المتطاوّل قد
انتهى إلي التطلع في ظلال الإسلام إلي ما هو أعظم وأكرم .
ويمضي النابغة فينشد :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكدرها
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر صدرا

^(١) ويروي " علونا السماء مجننا وسناونا ، كما يروي بلغنا السماء مجننا وجدوننا "

^(٢) العمدة ج ١ ص ٥٣ .

فيزداد ارتياح الرسول (صلي الله عليه وسلم) إذا يري فيما يسمع
أثراً من آثار وحي الإسلام وهديه ، ويقول له : أجدت لا يفضض
الله فاك . (١)

د) وتقول عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله - صلي الله عليه
وسلم - كثيراً ما يقول : أبيتك ، فأقول له :
ارفع ضعيفك لا يحرك بك ضعفه .

يوماً فتدركه عواقب ما جني

يجزيك أو يثني عليك فإن من

أثني عليك بما فعلت كمن جزي (١)

فيقول : صدق يا عائشة " لا يشكر الله من لا يشكر الناس "
هـ) ونري الرسول - صلي الله عليه وسلم - يطرب لسماع
قصيدة كعب بن زهير التي أنشأها في مدحه والاعتذار إليه وهي
التي بدأها بقوله :

باتت سعاد فتلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يقد مكبول
ويقول فيها مادحاً النبي :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

(١) الشعر والشعراء ص ٥٦ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٢ .

(١) الأبيات لزهير بن أبي سلمى

فصلحه الرسول ويجعله

مهند من سيوف الله مسلول

وهذا التعليل الذي أبداه الرسول - صلي الله عليه وسلم - إنما هو نقد ، إذ فيه توجيه لكعب وغيره من الشعراء إلي صواب القول ، فإن سيوف الهند أو غيرها قد تفل ، أما سيوف الله فهي التي لا تفل ولا تحيد عن مواطن الحق ، كما أن فيه توجيه إلي أن مرد القدرة والأمر كله لله وحده سبحانه وتعالى .

هـ) وعندما أنشده رجل قول سويد بن عامر :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم إن المنايا يجنبي كل إنسان
فأسلك طريقك تمشي غير مختشع حتي تلاقي الذي مني لك الماني
فكل ذي صاحب يوما مفارقه وكل زاد وإن أبقيته فاني
والخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان
فقال النبي : لو أدرك هذا الإسلام لأسلم .

و) وري الأصمعي أن رجلاً جاء إلي النبي - صلي الله عليه وسلم - فقال : أنشدك يا رسول الله ؟ قال النبي : نعم . فأنشده

تركت القيان وعزف القيان وأدمنت تصليّة وابتهالا
وكري المشقر في حومته وشني علي المشركين القتالا
فيارب لا أغبنن صفقتي فقد بعث مالي وأهلي بدالا

فقال النبي : ربح البيع - ربح البيع

(ز) وقال النبي لحسان : لقد شكر الله لك قولك

زعمت سخينة أن ستقلب ربها وليقلب مغالب الغلاب ^(١)

(ح) وقال النبي لعبد الله بن رواحة : أخبرني ما الشعر يا عبد الله ؟

فقال : شيء ويختلج في صدري ، فيتعلق به لساني
قال : فأنشدني ... فكان مما قال :

فثبت الله ما آتاك من حسن فقوت عيسي بإذن الله والقدر
فقال النبي : وإياك ثبت الله ، وإياك ثبت الله .

ولا أدل علي رواية الرسول (صلي الله عليه وسلم) لبعض نماذج
الشعر مما رواه الزبير بن بكار ، يقول : (مر رسول الله - صلي
الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، برجل يقول في
بعض أزقة مكة :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبي : صلي الله عليه وسلم : يا أبا بكر ، أهكذا قال الشاعر ؟
قال : لا يا رسول الله ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا سألت عن آل عبد مناف

فقال رسول الله - صلي الله عليه وسلم - هكذا كنا نسمعها ^(٢)

^(١) سخينة : قريش

^(٢) دلائل الأعجاز ص ٧٣ والأمال / أبو علي القالي ج ١ ص ٣٤١ ط بيروت

- وقد كان رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ترق نفسه ، وتهتز عواطفه للشعر ، روي ابن رشيقي في باب (شفاعات الشعراء وتحريضهم) في كتابه " العمدة " قال : قال عبد الكريم : عرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي صلي الله عليه وسلم وهو يطوف فاستوقفته ، وجذبت رداءه حتي انكشف منكبه ، وقد كان قتل أباهما فأنشدته :

يا راكباً إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ به ميتاً بأن تحية	ما إن تزال بها الركائب تخفق
مني إليه ، وعبرة مسفوحة	جاءت لمائحها وأخري تخفق
هل يسمعن النضر إن ناديته	أم كيف يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشفق
قسراً يقاد إلي المنية متعباً	رسف المقيد وهو عان موثق
أحمد ها أنت نجل نجيبة	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	من الفتى وهو المغيظ المحقق
النضر أقرب من أخذت بذلة	وأحقهم إن كان عتق يعق

فقال النبي - صلي الله عليه وسلم - : لو كنت سمعت شعرها هذا قبل أن أقتله ما قتلتها (١)

- وقد سار الخلفاء الراشدون ، والصحابة المؤمنون علي هذا النهج الذي ارتضاه الرسول - صلي الله عليه وسلم - ورسمه ، وإن تلونت اتجاهاتهم إزاء الآثار الأدبية ، ونقداتهم لها باختلاف مواهبهم الشخصية ، وأذواقهم الفنية .

ومن ثم رأينا بعض أصحاب الرسول - صلي الله عليه وسلم - يقول الشعر ويشجع عليه ويرويه ، بل ويبيدي فيه رأيه .

وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول : (إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً . (١)

(١) العمدة ج ١ ص ٥٦ بتصرف .

(١) السابق ج ١ ص ٣٠ .

عمر بن الخطاب ومذهبه النقدي

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان في إسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية ، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلالها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها .

بيد أنه ظن أن الشعر لا يجوز إنشاده في المسجد ، فيروي عن عمر - رضي الله عنه - أنه مر بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ثم قال : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير علي ذلك ، فقال عمر : صدقت ^(١)

فكان عمر يروي الشعر ويتمثل به ، ويحث علي روايته ، ويعدها من تمام المروءة والمعرفة ، كما قال لابنه عبد الرحمن : يا بني : انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترف أدباً .

كما كتب عمر - رضي الله عنه - إلي أبي موسى الأشعري : (مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل علي معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب)

وقال للمسامين عامة : (ارووا الأشعار فإنها تدل علي الأخلاق) ^(١) ويقول الجاحظ : (ما أبرم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمراً قط إلا تمثل ببیت من الشعر ، ويروي عنه قوله : " خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، يستميل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم " ^(٢))

لكل ما تقدم ندرك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ذا حاسة فنية دقيقة تجاه الشعر ، كما كان يمتاز بقدرة خاصة علي تذوق الشعر ونقدها هذه المقدرة جعلت ابن رشيقي يقول عنه في عمدته : (وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة) ^(٣) وكان الناس يعرفون ذلك فيه ، ويحتكمون إليه في أمر الشعر وقد أثر عنه في هذا الشأن الشيء الكثير ، ومن ذلك :

* قصته مع قبيلة بني العجلان ، فقد كانوا يفخرون بهذا الاسم " بني عجلان " لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قري الأضياف ، إلي أن هجاهم به النجاشي " الشاعر " فضجروا منه ، وسبوا به ، واستعدوا

^(١) عبقرية عمر / العقاد ص ٢٤٧ .

^(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٦٤ ، الحيوان : ج ٥ ص ١٩٠ .

^(٣) العمدة ج ١ ص ٣٣

عمر بن الخطاب رضي الله عنه علي الشاعر ، فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال عمر : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادي أهل لؤم وذلة فعاذي بني عجلان رهط بن مقبل
فقال عمر بن الخطاب : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، والله لا يعادي مسلماً فقالوا : إنه يقول عنا :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال عمر رضي الله عنه : ليتني من هؤلاء ، أو قال ليت آل الخطاب كذلك أو كلاماً يشبه هذا ، قالوا : فإنه يقول :
ولا يردون الماء إلا عيشة إذا صدر الورد عن كل منهل
فقال عمر : ذلك أقل للسكاك " أي الزحام "

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكّل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر : كفي ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه .
قالوا : فإنه قال :

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم ،

فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع ذلك
قالوا : فسأله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلّل

فقال عمر : ما هجاكم ، قالوا : فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله فقال :
ما هجاهم ولكن سلح عليهم ^(١) فقال عمر : أما هذا فلا أعزده عليه ،
وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب .
وكان عمر رضي الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشي ، ويفهم
قصده جيداً ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات كما هو معلوم في
القضاء ، فلما قال حسان ما قال ، سجن عمر النجاشي وقيل : أقام
عليه الحد ^(٢)

° قال عمر بن الخطاب ليلة لابن عباس رضي الله عنهما : أنشدني
لشاعر الشعراء ، قال : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : ابن أبي
سلمي قال ابن عباس : وبم صار كذلك ؟ قال عمر : لأنه لا يتبع
حوشي الكلام ، ولا يعاقل في المنطق ^(٣) ولا يقول إلا ما يعرف ،
ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ،
أليس هو الذي يقول :

إذا ابتدرت قيس بن غيلان غاية من المجد من يسبق إليها يسود
سبقت إليها كل طلق مبرز سبوق إلي الغايات غير مزند ^(٤)
ولو كان حمد يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

^(١) سلح عليهم / أي حمل عليهم السلاح لقتالهم .

^(٢) عقوبة عمر / العقاد ص ٢٥٠ ، العمدة ج ١ ص ٥٢ بنصرف .

^(٣) الحوشي : الغريب ، والمعاظلة : هي تركيب للكلام وتداخله حتى ينقل نطقه وسماعه

^(٤) طلق : سبق ، مزند : بخيل ضيق - ودعي .

فأنشده ابن عباس حتي برق الفجر ^(١)

ولهذا الخبر أهمية كبيرة بالغة ، إذ نري عمر رضي الله عنه يعلل لنقده ، ويفصل له معتمداً في هذا النقد علي كثير من الموضوعية فقد نظر رضي الله عنه في ألفاظ ابن سلمي وفي أساليبه ومعانيه ومنهجه في الشعر ، فوصف أسلوبه بالوضوح والسلامة والخلو من التوعر ، والبعد عن التعقيد ، كما وصف ألفاظه بالسماحة والألفة ووصف معانيه بالصحة والصدق وعدم المبالغة كما أثني علي منهجه في الشعر ، من حيث التزامه الحق والصدق ، والاعتدال والقصد ، والبعد عن الإفراط والغلو .

ويؤكد هذا الرأي لعمر في زهير . ما قاله عمر رضي الله عنه لابنة زهير حين سألها : ما فعلت حلل هرم بن سنان التي كساها أباك ؟ قالت أبلأها الدهر ، قال : لكن ما كساه أبوك هرماً لم يبيله الدهر . وقال عمر (رضي الله عنه) لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدني ما قال فيكم زهير ، فأنشده ، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، قال : يا أمير المؤمنين : إنا كنا نعطيه فنجزل ، فقال عمر : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

* وقيل إن عمر بن الخطاب كان يتعجب من قول زهير :

(١) الشعر والشعراء ص ٢٣

فإن الحق مقطعه ثلاث أداء أو نفار أو جلاء^(١)

وكان رضي الله عنه يكثر من ترديد هذا البيت ويتعجب من علم زهير بالحقوق وتفصيله بينها واستيفائه أقسامها . ويقول عمر : لو أدركت زهيراً لوليت له القضاء لمعرفة ، وسمي زهير " قاضي الشعراء " بهذا البيت ، يقول : لا يقطع الحق إلا الأداء ، أو النفار (وهو الحكومة) أو الجلاء (وهو العذر الواضح) وهذه الثلاث علي الحقيقة هي مقاطع الحق كما قال ، مع أنه جاهلي إلا أن الإسلام أكدها وليس هناك أدنى من التقاء هذا الفكر الجاهلي مع ما ارتضاه الإسلام وما قرره من مبدأ وهو (البينة علي من ادعي واليمين علي من أنكر) .

* وقد روت كتب الأدب والنقد كثيراً من أخبار عمر - رضي الله عنه - ونقداته ، فقد روي أنهم أنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب اللامية الطويلة ، فلما بلغ المنشد إلي قوله :

والمرء ساع لشيئ ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

قال عمر متعجباً : والعيش شح وإشفاق وتأميل

فكانه رده مبدئياً تعجبه من حسن ما قسم الشاعر وفصل .

* روي الجاحظ في (البيان والتبيين) أن الحطيئة كان جاراً للزبرقان بن بدر فلم يحم الحطيئة جوار الزبرقان ، فتحول عنه إلي

(١) ويروي البيت : فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء .

بغريض بن عامر ، فلقني عنده خير جوار ، فقال قصيدة يهجو فيها الزبرقان ، ويمدح فيها بغريضاً وفيها يقول للزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإني أنت الطاعم الكاسي
فشكاه الزبرقان إلي عمر رضي الله عنه ، فقال عمر : ما أراه هجاءك ، أما ترضي أن تكون طاعماً كاسياً ! فقال الزبرقان : إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا ، فأرسل عمر إلي حسان بن ثابت فسأله عن الأمر بعد أن سمع الشعر ، وقال له : أترأه هجاء ؟ قال حسان : نعم وسلح عليه ^(١) فحبس عمر الحطيئة وقال له : لأشغلنك ياخبيث عن أعراض المسلمين ^(٢)

- وها هو ذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه البصير بالشعر يتحدث ذات مرة مع وفد من قبيلة غطفان فقال : أي شعرائكم الذي يقول :

أنتيك عارياً خلقاً ثيابي علي خوف تظن بي الظنونا

قالوا : النابغة

قال : فأني شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : النابغة

(١) حمل عليه السلام فكأنه أراد قتاله

(٢) العمدة ج ١ ص ٣٧ .

قال : فأني شعرائكم الذي يقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع
قالوا : النابغة

قال : هذا أشعر شعرائكم

فالنابغة في رأي عمر رضي الله عنه أشعر غطفان ، بل أشعر
شعراء عبس وذبيان ، بل هو عنده أشعر من عنتره وعروة والشماع
وغيرهم ، وما بني عمر قوله هذا إلا علي بصر بالشعر وعلم به
وبما يرمي إليه .

- ومن بعد عمر يأتي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان كذلك
ذا بصر بالشعر يتذوقه وينقده ويعلل لنقده ولرأيه ، ويجعل لحكمه
سبباً وعلة ، أنشدوه مرة قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليفة

وإن خالها تخفي علي الناس تعلم

فأعجبه صواب معناه وقال : أحسن زهير وصدق ، فلو أن رجلاً
دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس .

- كما أثر عنه أنه كان يقول الشعر ، ومن الشعر الذي ينسب إلي
عثمان رضي الله عنه :

غني النفس يغني النفس حتي يكتفيها

وإن عضها حتي يضر بها الفقر

وما عسرة - فاصبر لها إن لقيتها -

بكائنة إلا سيتعبها يسر (١)

ويأتي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عمر وعثمان ، وكان مجوداً للشعر ناقداً له مفضلاً لبعض الشعراء علي بعض بشعرهم .

حكى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ، ونصبت لهم راية فجروا معاً علمناً من السابق منهم ، وإذ لم يكن ، فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، فقليل : ومن هو ؟ فقال : الكندي " يعني امرأ القيس بن حجر الكندي " قيل : ولم ؟ قال لأنني رأيته أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة . - وكان علي ينظم الشعر ، ومن شعره ما قاله يوم " صفين " يذكر " همدان " ونصرهم :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقتال	نواصيتها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه	عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادي ابن هند في الكلاع وحمير	وكفدة في لحم وحي جذام
تيممت همدان الذين هم هم	- إذا ناب دهر - جنتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبية	فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاهما واستطاروا شرارها	وكانوا لدي الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً علي باب جنة	لقللت لهممدان : ادخلوا بسلام

وهو القائل بصفين أيضا :

لمن راية حمراء يخفق ظلها إذا قلت قدمها حزين تقدما
فيوردها في الصف حتي يرد بها حياض المنايا تنقطر الموت والدماء
فهؤلاء الخلفاء رضوان الله عليهم ، ما منهم إلا وقال
الشعر ، ونقده .

الفصل الثاني : النقد في العصر الأموي

الاتجاهات العامة في نقد الأمويين :

ينمو النقد ويتطور ويقوي في العصر الأموي حيث استقر العرب في المدن والأمصار ، وتأثروا بالحضارات الأجنبية مادياً وعقلياً ، فتطور شعرهم وتطورت تبعاً لذلك أدواقهم ، وكيف لا وقد تحقق حلم الأمويين بالسيادة والملك بعد قتال طويل علي الخلافة ، وشب صراع بينهم وبين الأحزاب والطوائف الأخرى التي قامت تناوئهم ، ومن ثم أصاب المجتمع الإسلامي آنئذ تطور خطير في حياته العامة .

وأضيف إلي ذلك أمر جديد وهو دخول عناصر وأجناس مختلفة لها بيئاتها الخاصة ، وحياتها وأفكارها الجديدة الغريبة علي المجتمع الإسلامي .

ولم يكن هذا التطور عاماً في كل البيئات ، ولا عند كل الأفراد ، فقد كانت تسبق بيئة في شعرها وفي ذوقها وتتخلف أخرى ، وأهم بيئات الشعر حينئذ الحجاز والعراق والشام ، وكانت الحجاز أسبق البيئات إلي التطور بشعرها إذ سبقت إلي التطور بحياتها الاجتماعية تحت تأثير الثروات التي أصابها أهلها من الفتوح ، ومما أغدقه عليهم الأمويون من الأموال ، حتي يرضوا أهلها ويصرفوهم عن طلب الخلافة منهم ، واقترن بهذه الثروات والأموال إغراق في الجانب المادي من الحضارات الأجنبية التي نقلها لهم الموالى الذين اتجهوا

إلي الترفيه عن ساداتهم بالغناء والموسيقى ، وأقاموا لهم نوادي ودوراً كانت تكتظ بالمغنين والمغنيات مثل دار " جميلة " المشهورة في المدينة ^(١)

وكان الشباب في المدينة ومكة معتداً مفتخراً بنفسه ، وكيف لا وهم ورثة الفاتحين لبلاد فارس والروم ، فكان طبيعياً أن يتجدد شعره بتجدد حياته الاجتماعية وما أصاب نفسياتهم من تغير وتطور فظهر في المدن الغزل الصريح ، وشاع في البادية الغزل العفيف ، وشاع بين المدنيين نشاط نقدي واسع قام علي الموازنة بين النوعين . كل ذلك وغيره جعل من هذا العصر ، عصراً ذهبياً للأدب شعره ونثره وصلت فيه الكلمة إلي ذروة مجدها ، وتآلق نجم الشعر وارتقت الخطابة قمة باذخة .

وقد واكب النقد هذه النهضة الأدبية ، ولمع في سماءها وأخذت تظهر فيه اتجاهات تختلف في مسارها مع اختلاف الحياة في أرجاء الدولة الجديدة .

وفي السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري شهد النقد الأدبي ازدهاراً حيث كثرة الشعراء ، واختلاف البيئات والنزعات والمذاهب الأدبية ، فعمر بن أبي ربيعة في مكة ، والأحوص الأنصاري وعبيد الله بن قيس الرقييات في المدينة ، والأخطل في شبه الجزيرة ،

^(١) النقد / شوقي ضيف ص ٢٠

والكميت الأسدي في الكوفة ، والطرماح بن حكيم وعدي بن الرقاع في الشام ، هؤلاء الشعراء جميعاً أثروا الحركة الأدبية بنتائجهم الشعري الذي كان مادة فسيحة للموازنة ، فقد أخذ كثير من الناس يوازنون بين هذا الشعر الجديد والشعر القديم ، كما أخذوا يوازنون بين نوعي الغزل الصريح والعفيف ، ولا يقف سيل هذه الموازنة عند حد ، فهو يطغي علي كل الناس حتي الفقهاء ، فسعيد بن المسيب يسأل نوفل بن مساحق : من أشعر ؟ أعبيد الله بن قيس الرقيات أم عمر أبي بن ربيعة ؟ ويسأل غيره هل جميل بن معمر الشاعر البدوي العفيف أشعر أو ابن أبي ربيعة شاعر مكة الحضري ؟ ويختلف الجواب باختلاف الذوق .

وفي أثناء ذلك يلتقي الشعراء في فرص منظمة بالنوادي " الاجتماعات " ليلاً أو بالمسجد ، فيتحدث بعضهم إلي بعض ويتبادلون الملاحظات علي شعرهم ، ومن طريف ما يروي أن " كثير " وهو من أصحاب الغزل العفيف ومن بدو الحجاز اجتمع بابن أبي ربيعة والأحوص ونصيب وهم أصحاب الغزل المادي الصريح ، فدار الحديث بينهم وتجادلوا في أشعارهم وتماروا في أيهم أشعر ، فتعرض لهم " كثير " وأخذ يعيب شعرهم ، وكان مما قاله لعمر بن أبي ربيعة :

" أنت تتعت المرأة فتشيب بها ، ثم تدعها وتشيب بنفسك ، أخبرني يا هذا عن قولك " :

قالت تصدي له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزه فأبي ثم اسبطرت تشدد في أثري (١)
وقولها والدموع تسبقها لنفسدن الطوائف في عمر
أتراك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت
الهجر ؟ ! وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والخجل
والامتناع ، ويمضي الخبر فيذكر أن ابن أبي ربيعة وصاحبيه " عيباً
بعيب " أي واحدة بواحدة فعابوا شعره كما عاب شعرهم "
وكان مما قاله له عمر :

" أخبرني عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول :
ألايتنا يا عز كنا لذي غني بعيرين نرعي في الخلاء ونعزب (٢)
كلانا به عر فمن يرنا يقل علي حسننا جرباء تعدي وأجرب (٣)
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله علينا فما ننفك نرمي ونضرب
تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطرود والمسوخ فأبي
مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟ لقد أصابها منك قول القائل : (معادة

(١) تشدد : تعدو

(٢) نعزب : نبعد ونغيب

(٣) عر : جرب

عاقِل خير من مودة أحمق) .

- فكثير في ملاحظته ونقده لابن أبي ربيعة إنما يستمد من ذوق أصحاب الغزل العفيف الذين يرون أن لا تصور المرأة كما هي في الواقع ، وإنما تصور كمثّل أعلي ، فهم لا يذكرون منها ما يكون فعلا في غير تأثم ولا تحرج ، وإنما هم يصنعون لها ضروباً من الحياء والتمنع .

- وابن أبي ربيعة في الجانب المقابل يستمد نقده من أهل الحضر ويلاحظ علي كثير خشونة في ذوقه لأنه من أهل البادية ، وهو لذلك لا يحسن التمني لصاحبته "عزة" علي نحو ما يحسن ابن أبي ربيعة في مثل قوله :

فعدي نائلاً وإن لم تنيلي إنه يقتنع المحب الرجاء ^(١)

ولأهل الحجاز في كتب الأدب ملاحظات كثيرة من هذا النوع ، وهي في جملتها تستمد من الذوق الحضري الجديد .

- كما كان للعصبية أثرها الكبير في النقد ، حيث استعادت القبائل خصوماتها الجاهلية وما ينطوي من عصبيات وحولتها إلي ضرب من المفاخرات بين الشعراء الذين كثر اجتماعهم وكثر الحوار والاختلاف بينهم .

^(١) أي أوعدي وإن لم تعطي .

وكانت كل قبيلة تحاول أن تثبت فضلها في الشعر ، فإن لم يسعها شعراء حاضرون ارتدت إلي الجاهلية تستعين بشعرائها القدماء لتثبت أنها ورثت الشعر من قديم وأن تراثها فيه عظيم ، ومن هنا ظهرت بقوة فكرة الموازنة بين الشعراء بعضهم وبعض ، ثم بين الشعراء المعاصرين وأسلافهم في الجاهلية ، ونشبت معارك جدلية كثيرة فكل قبيلة تتعصب لشعرائها ، وكل شاعر يقول : أنا أشعر الناس ، وسوق " المربد " بالبصرة كان أهم مركز لهذا الحوار والجدل ، ففيه كان يلتقي الشعراء كل يوم ويتحاورون ويتخاصمون ، ويكفي أن نذكر جريراً والفرزدق ، وما أثاراه حولهما من نشاط نقدي لنتعرف إلي أي مدي كان المربد باعثاً علي نشاط النقد في هذه البيئة ، فقد كان لكل منهما حلقة ، وكان الناس يؤمنونهما ليستمعوا إلي مناظرات الشعر التي بعثوها ، والتي تسمي في تاريخ الأدب العربي باسم (النقائض) حيث يصوغ أحدهما في الفخر بنفسه وعشيرته وهجاء صاحبه وقبيلته ، ثم يرد عليه صاحبه بقصيدة من نفس وزن قصيدته وقافييتها وغرضها ، وفي أثناء ذلك يتصايح الناس ، ويهللون ويصفقون ، ويتقدم الشعراء فيبدون ملاحظاتهم علي الشاعرين وقد جرت علي السنة الشعراء في هذه البيئة بعض كلمات معروفة عند النقاد مثل السبق في المعاني وكلمتي الخاصة ، والعامية فجرير أشعر الناس عند العامة - والفرزدق أشعر عند الخاصة .

- وكان الشعراء يفدون علي الخلفاء يطلبون رفدهم وجوائزهم ، وأفسح لهم الخلفاء في مجالسهم ، بل جعلوا هذه المجالس نوادي أدبية حافلة وكان من أهم ما يعرضون له فيها الشعر والشعراء ، فمعاوية كان يقول للمتجادلين من حوله : (خلوا إلي طفيلاً ، وقلوا ماشئتم في غيره من الشعراء) يريد طفيلاً الغنوي الشاعر الجاهلي المشهور بوصف الخيل .

وكان الخلفاء الأمويون بعد معاوية يعقدون هذه المجالس ، وقلما وفد عليهم شاعر إلا سألوه عن الشعراء من المعاصرين والسابقين ، فالأخطل وجريز والفرزدق كل منهم يسأل عن صاحبيه ، ويسأل عن غيرهما من المعاصرين - كما يسأل عن الشعراء السالفين ، ولم يقف هؤلاء الخلفاء عند السؤال والاستفتاء ، فقد كانوا كثيراً ما يبدون ملاحظات نقدية علي ما يسمعون .

فمن ذلك أن عبد الملك بن مروان لما سمع قول جرير في هجاء الأخطل والافتخار عليه :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا ^(١)
فقال عبد الملك : ما زاد جرير علي أن جعلني جلواذاً مكلفاً بالسوق إليه ، أو ما زاد علي أن جعلني شرطياً ، أما أنه لو قال : لو شاء ساقكم إلي قطينا لسقتهم إليه كما قال .

(١) القطين : الخدم والحشم

وعبد الملك يشير هنا إلي ضرب من المجاملة ينبغي أن يأخذ الشاعر به نفسه حين يعرض لأمثاله من الخلفاء .

- ويروي الرواة أنه كان يقول للشعراء ممن لا يقع منه موقعاً حسناً : تشبهوني مرة بالأسد ، ومرة بالبازي ، ومرة بالصقر ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقري :

ملوك ينزلون بكل ثغر إذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الأمور تري عليهم من الشيخ الشمانل والنجارا ^(١)
نجوم يهتدي بهم إذا ما أخو الظلماء في الغمرات جارا
ومن الواضح أنه يدعو الشعراء إلي تجديد معانيهم وصورهم
- وأنشد عبيد الله بن قيس الرقيات قصيدة يمدح فيها عبد الملك يقول فيها :

إن الأغر الذي أبوه أبو الـ عاصي عليه الوقار والحجب
يأتلق التاج فوق مفرقه علي جبين كأنه الذهب
فغضب عبد الملك وقال له :

يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأنني من ملوك العجم ، وتقول في مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الـ له تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

^(١) النجار : الأصل

وهو علي ما نري نقد دقيق يدل علي ما وراءه من ذوق جيد
- وغير عبد الملك من خلفاء بني أمية كانوا يعلقون علي شعر
مادحيهم بمثل هذه الملاحظات ، وقد امتاز يزيد ابنه بأنه كان
شاعراً ، وكذلك كان الوليد بن يزيد ، وسليمان بن عبد الملك .
- روي ابن رشيقي في العمدة قال : غضب سليمان بن
عبد الملك علي الفرزدق ، وذلك أنه استنشده فيه أو في أبيه ، فأنشده
مفتخراً عليه :

وركب كان الريح تطلب عندهم

لها ترة من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الريح وهي تلفهم

إلي شعب الأكوار ذات الحقائق

إذا استوضحوا ناراً يقولون : ليتها

- وقد خصرت أيديهم - نار غالب (١)

فتبين غضب سليمان ، وكان نصيب الشاعر حاضراً فأنشده :

أقول لركب قافلين رأيتهم قفا ذات أو شال ومولاك قارب (٢)

فقلوا خبروني عن سليمان إنني لمعروفة من أهل ودان طالب

فعاوجوا فأنثوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

(١) غالب : أبو الفرزدق

(٢) قفاه : جانبه الخلفي ، وذات أو شال : اسم موضع

فقال سليمان : يا غلام ، أعط نصيباً خمسمائة دينار ، والحق
الفرزدق بنار أبيه ، فخرج الفرزدق مغضباً يقول :

وخير الشعر أكرمه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد^(١)

وتروي كتب الأدب أن وفداً من العراق قدم علي معاوية فخطبهم
قائلاً : (مرحباً بكم يا أهل العراق ، قدمتم أرض الله المقدسة ، منها
المنشور وإليها المحشر ، قدمتم علي خير أمير يبر كبركم ، ويرحم
صغيركم ، ولو أن الناس كلهم ولد أبي سفيان لكانوا حلماًاء
عقلاء .)

فقام إليه صعصعة بن صوحان ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلي علي
النبي صلي الله عليه وسلم ، ثم قال :

(أما قولك يا معاوية : أننا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمري ما
الأرض تقديس الناس ، ولا يقديس الناس إلا أعمالهم ، وأما قولك منها
المنشور وإليها المحشر ، فلعمري ما ينفع قربها ، ولا يضر بعدها
مؤمناً .

وأما قولك : لو أن الناس كلهم ولد أبي سفيان لكانوا حلماًاء
عقلاء ، فقد ولدهم خير من أبي سفيان ، وهو آدم عليه صلوات الله
فكان منهم الحليم والسفيه والجاهل والعالم)^(٢)

(١) العمدة ج ١ ص ٧٣

(٢) الخطابة في صدر الإسلام / محمد طاهر درويش ج ٢ ص ١٤٠ .

فهذه فطرة أدبية سوية سليمة، زانها ذوق ناقد ينظر في الكلام فيميزه وينقده، ويوجهه وجهته السليمة ، ويخضعه لمقاييس واضحة ، من صحة المعني وصواب المنطق ، حتي ولو كان الكلام صادراً من خليفة رفيع الشأن ، جليل القدر كمعاوية .

- وموقف آخر جري فيه الكلام بين معاوية ورجل من أهل سبأ فقد نظر الرجل في قول معاوية ، وعقب عليه ونقده ، وقد اعتمد في نقده أيضاً علي سلامة المنطق ، وسداد الرأي وصحة المعني قال معاوية للسبئي : ما كان أجهل قومك حيث ملكوا عليهم امرأة " يعني بلقيس "

فقال السبئي : بل قومك أجهل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي الحق وأراهم البينات : " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " ألا قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه . (١)

اتجاهات النقد في العصر الأموي

أخذ النقد في العصر الأموي اتجاهات واضحة تمتاز بالأصالة الفنية والعمق ، ومن هذه الاتجاهات :

(١) الاتجاه اللغوي : وهو اعتداد العلماء من النحاة واللغويين بأرائهم النقدية لاتصالها بالقواعد المقررة لديهم .

(٢) الاتجاه الفني : وهو اتخاذ الجودة الفنية أساساً في تقويم الشعر دون النظر إلي خلق أو نمط حياة الشاعر الخاصة .

(٣) اتجاه الموازنات : وهو المقارنة الدقيقة بين نصين اتحدا في الموضوع أو بين شاعرين اتحد مذهبهما الشعري .

أولاً : الاتجاه اللغوي : كان العربي بحسه اللغوي يلحح اللفظ من حيث بنائه وصياغته واشتقاقه ، ومن حيث مركزه الإعرابي ، فإذا لحن الشاعر في كلمة أو في تركيب تلقفته السنة النقاد وخصوصاً من لهم باللغة علاقة من ناحية النحو والصرف أو الاشتقاق .

١- ومن أمثلة النقد اللغوي " نقد العلماء " ما علق به أبو العباس محمد بن يزيد النحوي علي قول الفرزدق :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

فقد جمع الشاعر : ناكس علي نواكس " ولا يجمع وزن فاعل علي " فواعل " إلا مع المؤنث ، أو المذكر غير العاقل ، فتقول فاطمة — فواطم — شاعرة — شواعر .

خاتم — خواتم — كاهل — كواهل .

أما جمع ناكس علي نواكس فخطأ لغوي ، ولكن ضرورة الشعر
أحوجته إلي ذلك .

٢- ومنه أيضاً ما أنشده الفرزدق من قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف
فسأله عبد الله بن أبي إسحاق " النحوي " علي أي شيء
ترفع " مجلف " ؟ فرد الفرزدق : علي ما يسوءك وينوءك ، علينا أن
نقول وعليكم أن تتأولوا .

فرفع الشاعر مجلف " وحقها النصب لأنها معطوفة علي " مسحاً "
وذلك علي رواية أن الفعل " يدع " مفتوح الدال .

- وقد تأول بعض النحاة رفع " مجلف " فقال : إنه عطف علي
المنصوب بملاحظة المعني لا اللفظ فكأنه قال " : بقي مسحت أو
مجلف

- وبعد ذلك هجا الفرزدق ابن أبي إسحاق فقال :

ولو كان عبد الله مولي هجوته ولكن عبد الله مولي موالياً
فقال ابن أبي إسحاق : لحننت كان ينبغي أن تقول " مولي موال "
وكان ابن أبي إسحاق هنا لم يهتم بهجاء الشاعر له بقدر ما اهتم
بإصلاح الخطأ ، وموال حقها أن تحذف الياء ثم يعوض عنها التثوين
أي تعل إعلال قاض وساع وداع إلخ ولا تثبت الياء إلا
في حالة النصب .

٣- مدح عبید الله بن قیس الرقیات عبد العزیز بن مروان بقصيدة قال فیها عن شبلین " أبناء الأسد "

ما مر یوم إلا وعندهما لحم رجال أو یالغان دما
فقال یونس " النحوي " یجوز " یولغان " ولا یجوز " یالغان " فقیل
له : قد قال ذلك ابن قیس الرقیات وهو حجازي فصیح
قال یونس : إنه لیس بفصیح ولا ثقة إنه یضیع عمره فی اللهو
٤- طعن الأخفش علی بشار بقوله :-

فالآن أقصر عن سمیة باطلی وأشار بالوجلّی علی مشیر
وقوله :

علی الغزلی منی السلام فربما لهوت بها فی ظل مرءومة زهر
وقوله یصف سفينة :

تلاعب نینان البحور وربما رأیت نفوس القوم من جریها تجری
قال الأخفش : لم یسمع وزن (فعلی) من الوجل والغزل ، ولم
أسمع بنون " حوت " تجمع علی نینان
فبلغ بشار ما قاله الأخفش توعده بالهزاء ، فعدل الأخفش عن طعنه
ورأیه ورضی أن یحتج بشعره خوفاً من لسانه .

٥- قال عبد الملك بن مروان لعبید الله بن قیس الرقیات : ویحك یا
ابن قیس أما اتقیت الله حین تقول عن ابن جعفر :

تزور امرأ قد یعلم الله أنه تجود له کف بطی غرارها

ألا قلت : قد يعلم الناس ، قال ابن قيس : قد والله علمه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا وعلمه الناس .

ولم يفطن الشاعر إلي اعتراض عبد الملك بن مروان ، ووجه اعتراضه نشأ من تقييد الفعل المضارع " يعلم " بقد ، لأن قد تقييد القلة والشك . فاعتقد الشاعر أن عبد الملك بنفس " يحسد " علي ابن جعفر أن يعلم الله بجوده ، ولهذا أجابه بقوله : قد والله علمه الله الخ ، وعبر هنا بالماضي قد علمه ولو قال ابن قيس : يعلم الله أو قد علم الله ما كان للخليفة أن يعترض .

٦- ودخل النضر بن شميل علي المأمون ، فأجريا الحديث ، حتي جاء ذكر النساء ، فروي المأمون حديث ابن عباس من رواية هشيم : " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز " ونطق " سداد " بفتح السين .

وروي النضر الحديث نفسه من رواية علي بن أبي طالب ونطق " سداد " بكسر السين .

قال المأمون : أتلحنني يا نضر ؟ قال : لا وإنما لحن هشيم وكان لحننا فتبع الأمير لفظه ، قال : فما الفرق بينهما ؟

قال النضر : السداد بالكسر : البلغة ، وكل ما سددت به شيئاً ، قال المأمون : أو تعرف العرب ذلك ؟ قال النضر : نعم هذا العرجي يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثانياً : الاتجاه الفني :

وهو تقويم الشعر علي أساس الإجادة في إصابة المعني الذي يقصد إليه الشاعر ويرمي مع مراعاة الألفاظ والأخيلة دون النظر إلي سلوك الأديب أو أخلاقه .

ومن صور هذا النوع من النقد ما يلي :

١- وصف أبو النجم فرساً فقال فيه :

يسبح آخراه ويطفو أوله

فنقده الأصمعي بقوله : إذا كان " الفرس " كذلك فحمار الكساح أسرع منه ، لأن اضطراب مؤخرة الفرس قبيح، وإنما الوجه ما قاله الأعرابي في وصف فرس أبي الأعور السلمي:

مر كئمع البرق شام ناظره يسبح أولاه يطفو آخره

ما يمس الأرض منه حافره

٢- وهذا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان تكثر آراءه واتجاهاته ونقده في الأدب شعراً ونثراً حيث كانت مجالسه حافلة بأرباب العلم والرواية وأهل الشعر والأدب .

دخل عليه العجاج الراجز المشهور ، فقال عبد الملك : يا عجاج بلغني أنك لا تقدر علي الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين من قدر علي تشييد الأبنية أمكنه إخراج الأخبية (أي من استطاع رفع شأن الناس بالمدح ، استطاع هدم شأنهم بالقبح والهجاء) قال : فما يمنعك

من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم وإن لنا حُلماً يمنعنا من أن نُظلم ، فعلام الهجاء ؟ قال عبد الملك : لكلماتك أشعر من شعرك ! فأنى لك بعز يمنعك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال عبد الملك : فما الحلم الذي يمنعك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب المستطرف والطبع التالد ، قال : يا عجاج لقد أصبحت حكيماً ، قال عجاج : وما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين .

٣- كان عبد الملك كثيراً ما ينقد مطالع القصائد في عبارات وجيزة تفصح عن عدم ارتياحه إلي هذا المطلع أو ذاك ، وكان يصدر في ذلك عن طبع وذوق .

دخل جرير علي عبد الملك بن مروان فابتدأ ينشده :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة هم صحبك بالرواح

فقال له عبد الملك : (بل فؤادك يا ابن الفاعلة) كأنه استنقل هذه المواجهة ^(١) .

ومن هذه الوجهة عاب علي ذي الرمة حينما دخل عليه فاستنشهده شيئاً من شعره فأنشده قصيدته :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنها من كلي مفرية سرب

وكانت بعين عبد الملك ريشة فهي تدمع أبداً " دائماً " فتوهم أن الشاعر خاطبه أو عرض به فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل

فنفقته وأمر بإخراجه .

وكذلك فعل ابنه هشام بن عبد الملك بأبي النجم حينما دخل عليه أبو النجم وقد انشده في أرجوزة :

والشمس كادت ولما تفعل كأنها في الأفق عين الأحول
وكان هشام أحولا ، فأمر به فحجب عنه مدة ، وقد كان قبل ذلك من خاصته ، يسمر عنده ويمازحه .

قال ابن رشيقي : وإنما يؤتي " يقع " الشاعر في هذه الأشياء إما من غفلة في الطبع وغلظ أو من استغراق في الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أين ذهب ، والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها ، وينظر في أحوال المخاطبين فيقصد محابهم ، ويميل إلي شهواتهم ، وإن خالفت شهوته ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره ^(١)

٤- عاب عبد الملك بن مروان علي كثير قوله :

هممت وهمت ثم هابت وهبتها حياء ومثلي بالحياء حقيق
حيث قال له : شركتها معك في الهيبة ، ثم استأثرت بالحياء دونها
وعندما مدح " كثير " أخاه " عبد العزيز بن مروان " بقوله :
وما زالت رقاك تسل ضغني وتخرج من مكانها ضبابي
قال لأخيه " عبد العزيز " ما مدحك وإنما جعلك راقياً للحيات .

(١) السابق ج ١ ص ٢٢٣

- وهناك الكثير من النقداً الأدبية التي تحفل بها يكتب الأدب والنقد لرجال وأدباء هذا العصر وهي نقداً تنبئ عن حس رهيف في تذوق الجمال الفني .

٥- أتى الفرزدق المدينة قاصداً " سكينه بنت الحسين بن علي " رضي الله عنها لينشدها من شعره فقالت له يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ فقال الفرزدق : أنا

قالت سكينه : كذبت ، أشعر منك الذي يقول :

بنفسي من تجنبه عزيز علي ، ومن زيارته لمام

ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام

فقال الفرزدق : والله لو أذنت لي لأسمعك أحسن منه ، فلم تأذن له وصرفته ، فوافاهما اليوم التالي ، ودار بينهما نفس الحوار ، فقالت له أشعر منك الذي يقول :

لولا الحياء لهاجني استعبار ولنزرت قبرك والحبيب يزار

كانت إذا هجر الحليل فراشها كتم الحديث وعفت الأسرار

وفي اليوم الثالث يدور نفس الحوار ، فقالت له : أشعر منك صاحبك الذي يقول :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قتلاتنا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنساناً

- وسمعت قول الأحوص الأنصاري :

من عاشقين تراسلا فتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلّقا
بعثا أمامها مخافة رقبة عبدا ففرق عنهما ما أشقّقا
باتا بأنعم ليلة وألذها حتي إذا وضح الصباح تفرقا
فقلت : وددت لو قال : تعانقا بدلاً من تفرقا

٦- وجاء جرير قاصدا مجلس " سكينة " فردته قائلة : ألسنت
أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي السلام
قال : نعم ، قالت : هلا أخذت بيدها فرحبت بها ، وأدنيّت مجلسها ،
وقلت لها ما يقال لمثلها : ادخلي بسلام . وأي ساعة أحلي للزيارة
من الطروق ؟ !

ثالثاً : الموازنات

الناقد الرقيق هو الذي يبحث ويطيل النظر في شعر الشاعر وشعر غيره ممن يوازنه به ، ولا بد له أن يعرف المثل الأعلى للشعر ، ويقرأ ما قاله كل شاعر ويزنه ويقومه فإذا طلبت منه الموازنة بين جرير والفرزدق مثلاً وزن شعر كلا منهما ثم قارن بينهما مقارنة مضبوطة بأصول وقواعد و لكننا نلاحظ في موازنات العصر الأموي إذا رجعنا إليها أنها تتقف دائماً عند وضع أحد شاعرين فوق زميله ، ولا تعلق ذلك ولا تذكر أسبابه وفي الغالب ليس هناك سبب ولا علة سوي الميل الشخصي .

ومن الموازنات ما روته كتب الأدب من أن الحجاج بن يوسف اجتمع عنده الفرزدق وجرير يوماً فقال لهما : من مدحني منكما بشعر يوجز فيه ويحسن صفتي فهذه الخلعة له فأنشد الفرزدق :
فمن يأمن الحجاج والطير تتقي عقوبته إلا ضعيف الغرائم
ثم أنشد جرير :

فمن يأمن الحجاج أما عقابه فمر وأما عقده فوثيق
يسر لك البغضاء كل منافق كما كل ذي دين عليك شفيق
فقال الحجاج للفرزدق : ما عملت شيئاً ، إن الطير تتقي الصبي
والخسبة ودفع الخلعة إلي جرير .

ونقاد العرب في إقامتهم للموازنات كانوا يشترطون اتفاق
الشاعرين في المعنى حتي تمكن الموازنة بين المعاني والأسلوب ،
ولم يشترط بعض النقاد هذا الاتفاق مكتفياً بالاتفاق في الغرض العام
من بعيد . (١)

- سمع بشار قول كثير :

ألا إنما هند عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين
فقال " بشار " قاتل الله أبا صخر يزعم أنها خيزرانة بعد أن جعلها
عصا والله لو جعلها عصا زبد أو عصا مخ لهجنها وما كان يجدي
بعد أن جعلها عصا ، هلا قال كما قلت :

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها قطع الجمان
إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران
والهجنة في التعبير جاءت من تشبيه المرأة بالعصا حتي ولو كانت
من خيزران فهي في غاية النحافة والهزال وهي اليبوسة علي تلك
الصورة .

- ومنه قول الفرزدق :

أتعدل أحساباً لنأما أدقة بأحسابكم ، إني إلي الله راجع
ولقد وضع أمامه قول جرير :

أتعدل أحساباً كراماً حماتها بأحسابكم ، إني إلي الله راجع

(١) أسس النقد الأبي عند العرب / أحمد بدوي ص ٥٤٣ بصرف .

فلقد قارن الشاعران ووازننا وقابلا بين الأحساب ، في الشطر الأول
والأحساب في الشطر الثاني .

الفصل الثالث

أثر النقائض في توجيه النقد

يعد فن النقائض من الصق فنون الشعر بالعصر الأموي - وإن ظهر قبل ذلك بصورة أولية سذاجة - إلا أنه في العصر الأموي قد اتخذ وجهة خاصة وانتشر انتشاراً واسعاً حتي تفرغ له كبار الشعراء في ذلك العصر من أمثال الفرزدق وجريير والأخطل .

والنقائض : جمع مفردة نقيضة ومعناها يدور حول الهدم للبناء ، والحل للعهد والحبل قال تعالى : " ولا تكونوا كالتي نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً " وناقض الرجل غيره إذا أبطل كلامه وأثبت ما يغايره .

- ويقصد بالنقيضة : أن يتجه شاعر إلي شاعر آخر بقصيدة يهجوها فيها أو يفخر عليه فيرد عليه الآخر بقصيدة أخرى يهجوها ويرد عليه ملتزماً في ذلك نفس البحر ونفس القافية والروي الذي اختاره الشاعر الأول فضلاً عن الغرض " الهجاء والافتخار "

- وقد عرفت النقائض منذ العصر الجاهلي وذلك فيما قيل يومي الكلاب الأول والثاني ويسمي الثاني يوم " الشعبية " وكان بين قبائل بني تميم وبني سعد علي قبائل مذحج وهمدان وكندة .

ثم أخذت صورة النقائض في أيام العرب ومعاركها صورة فطرية انعكست عليها صراعات الشعراء فكان كل شاعر في معسكر قبيلته يحمس ويهاجم فتكثر تبعاً لذلك حرب اللسان إلي جوار حرب السنان

ومعركة الشعر بجوار معركة السيف ، وأخذ بعض الشعراء يرد على البعض الآخر فينذر ويهدد ويتوعد ويفخر ويحمس ويندد ويلتزم في ذلك كله البحر والقافية الموحدين ومن هنا تجسدت الصورة الفطرية الأولى لفن النقائض .

ولما جاء الإسلام وأشرقت الأرض بنور ربها انقسم العرب آنئذ إلى مسلمين ومشركين واحتدم بينهما الصراع معتقداً كل فريق أن الحق في جواره واجتذبت المعارك بينهما الشعراء ، فكان شعراء الإسلام إزاء شعراء الشرك والضلال ، وبينهما دارت صراعات بلا حدود كان قوام تلك الصراعات وتلك المعارك الفخر بالبطولة والنصر وتعيير المهزوم الذي راح يقدم الاعتذار عن الهزيمة ويذكر البطولات السالفة ، ويهدد بالظفر واستئصال شأفة الخصم في الوقائع اللاحقة وكل ذلك يمثل النقائض تمثيلاً ناضجاً صادقاً .

- وخير ما يمثل ذلك ما قاله عبد الله بن الزبيري عقب موقعة أحد مفتخراً بانتصار المشركين في هذه الغزوة وما أوقعوه بأبطال المسلمين ، مما جعلهم يثأرون لهزيمتهم في بدر إذ يقول :

يا غراب البين أسعمت فقل	إنما تنطق شيئاً قد فعل
أبلغن حسان عني آية	فقريض الشعر يشفي ذا القل
كما قتلنا من كريم سيد	ماجد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخرج من وقع الأسل
فقتلنا الضعف من أشرافهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل

حينئذ أجابه حسان بن ثابت رضي الله عنه بأن الحرب دول ، وإنهم وإن انتصروا في أحد ، فقد انتصر المسلمون في بدر وفيها كانت بطولات ومآثر حيث قتل صناديد الكفر علي أيدي أبطال مؤزرين بنصر الله وملائكة فقال حسان :

ذهبت بابن الزبيري وقعة	كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتهم وثلنا منكم	وكذاك الحرب أحيانا دول
نضع الأسياف في أكتافكم	حيث نهوي عللا بعد علل
إذا شددنا شدة صادقة	فأجأتكم إلي سفلح الجبل
برجال لستم أمثالهم	أيدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقي	طاعة الله وتصدق الرسل
وتركنا في قريش عورة	يوم بدر وأحاديث الرسل

- ثم وجدنا النقائص تسهم بدور كبير في تطور النقد في عصر بني أمية حيث تجاوز هذا الفن تلك الصورة الساذجة التي توقف عندها في عصري الجاهلية وصدر الإسلام ، والتي كانت تدور حول بعض المعاني التي يرمي بها المهجو كالجن والبخل والقعود عن الثأر وعدم الوفاء وتكثي الهمة إلي صورة جديدة وهي غوص الشاعر وراء المعاني المبكرة والتقاط الصور الجديدة واللهث إلي ابتداع الأخيلة التي لم يسبق إليها .

وبلاحظ أن النقائص :

(١) كانت تشترك مع القصيدة العربية القديمة في شكلها وإطارها الخارجي ومظهرها العام وهو اشتماله علي عدة موضوعات تبدأ ببكاء الأطلال والديار ، ثم وصف الرحلة التي يقطعها الشاعر عبر صحرائه إلي الممدوح ، ثم المدح أو الفخر أو الهجاء .

(٢) التزام أصحابها بالأوزان والقوافي المعروفة وعدم الخروج عليها وإن كانت الألفاظ والمعاني والأخيلة جديدة .

(٣) كانت أغلب الموضوعات التي تدور حولها النقيضة هي الفخر والهجاء وهما الغرضان اللذان استنفدا جهد ووقت الشعراء .

أما الفخر : فهو فن قديم ولا تكاد تخلو منه نقيضة من النقائص ، سواء أكان فخراً بالمآثر والصفات المعروفة عند العرب قديماً كالكرم والشجاعة والمروءة وحماية الجار أم فخراً بالآباء والأجداد والقبائل وخلال ذلك تطل العصبية القبلية دون استحياء مع أن الإسلام عمل علي محو معالمها وعلامتها .

وأما الهجاء : فهو أيضاً فن قديم جداً ، وهو كذلك لا تكاد تخلو منه نقيضة لأنه ببساطة من أقوى ركانزها .

والهجاء يقوم علي ثلاث دعائم :

(١) تجريد المهجو وقبيلته من سني المكارم الإنسانية والمآثر الحميدة ثم إلصاق هذه المكارم وتلك المآثر بنفس الشاعر الهاجي .

(٢) قذف وسب المهجو بأبذاء الشتائم والسباب إلي حد تناول الأعراض والحرمان والتعرض للنساء بالفحش والخنا علي نحو لا يقره عرف ولا دين . .

(٣) تصوير المهجو بصورة ساخرة تحمل علي الضحك منه ومن قبيلته .

هذه الدعائم الثلاث لفن الهجاء بالإضافة إلي الفخر لا تكاد نقیضة تخلو منها كنقائض جرير والفرزدق والأخطل وأحياناً كان الفخر يختلط بالهجاء في النقيضة الواحدة .

إلي جانب هذه الدعائم الثلاث كان لكل شاعر من شعراء النقائض طوابعه الهجائية الخاصة فجرير كان يعني بتصوير خصمه في صورة تبعث علي السخرية وتشي بالتهكم والضحك أكثر مما يعني بالغوص وراء المعني الطريف .

علي حين كان الفرزدق يمتلك طاقة تخيلية كبيرة أوسع مما هي عليه لدي جرير ، وكان أكثر ابتكاراً للمعاني بيد أن صعوبة شعره حدث من انتشاره وطيرت سهولة شعر جرير شهرته في الآفاق .

أما الأخطل فكان أقل من صاحبيه في البذاءة والفحش ولعل اتصاله ببلاط الدولة وراء هذه القلة ، إلا أن هجاءه لم يخل منه خلوا تاماً .

خصائص شعر النقائض

(١) الإفحاش في الهجاء : فقد هتك شعراء النقائض الأعراض وأباحوا الحرمات وصوروا العورات واختلقوا الشائعات ووصفوا ذلك بلغة مكشوفة وأسلوب صريح دون تعريض أو تلميح ، ويكفي أن بني مجاشع زعموا أنهم لم يهجوا بشئ أشد عليهم من قول جرير .

نكحت نساؤكم بغير مهور

وقال جرير : ما هجينا بشئ قط أشد علينا من قول الأخطل :
ما زال فينا رباط الخيل معلمة وفي كليب رباط الذل والعار
قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأهمهم بولي علي النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار
(٢) توليد المعاني وابتكار الصور : وذلك سعياً وراء التفوق وهروباً من اجترار المعاني القديمة ، وربما كان الباعث علي ذلك أيضاً ما أثار عن محدودية المعاني التي يتناولها شعراء النقائض ، فكانهم هربوا من استخدام الصور المستهلكة والمعاني الخلقية التي يمجهها الذوق .

٣) الميل إلي الاستقصاء : فكان شاعر النقيضة لا يترك عار إلا ويرصده ولا بسيط إلا ويضخمه ثم يهاجم خصمه من كل الجهات ويسلب مآثره وينسبها إلي نفسه وقومه ويذكر ما كان من أيام قومه في الجاهلية والإسلام وما كان من بطولاتهم وقوة شكيמתهم وعلو هممتهم ، مع وعد بإحراز أمجاد طريفة لا يقل أمرها عن نظيرتها الثليدة .

٤) طول القصائد : إذ تتجاوز النقيضة غالباً مائة بيت مما يوحي بأن النقيضة الأموية تعدت مرحلة المقطوعات الهجائية ، وأنها أصبحت مسألة هجاء معقد يقوم علي الدرس والتتقيب في أغوار القبائل والأحساب والأنساب ، والدافع وراء ذلك هو أن ينال الشاعر من خصمه ، ويثبت المجد لقومه .

٥) الجزالة اللفظية : تميزت النقائض الأموية بجزالة اللفظ ، ومثانة السبك وضخامة العبارة ، ولا غرابة في ذلك فقد كان شعراء النقائض يشبهون الشعراء الجاهليين في الأساليب ، بل وكانت نشأة بعضهم كجرير والأخطل في كنف البادية وبين أهلها ، وكان لهذه النشأة أثرها في طبع شعرهم بهذه الجزالة وتلك المثانة مع بساطة المعني ، كما انعكس طابع البداوة علي صورهم وأخيلتهم أيضاً ، ولذلك راح أهل البادية يعجبون بشعر جرير لما رأوا فيه من

جزالة ، وراح أيضا أبو عمر بن العلاء يقول في الفرزدق " لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير الفرزدق ورؤية .

(٦) الاعتماد علي أسلوب الموازنة والمقارنة والمقابلة

وهو أسلوب لجأ إليه الشعراء لتوضيح أفكارهم وتجليتها حتي تزداد قوة وثباتاً في أذهان المتلقين . فلقد قارن الشعراء ووازنوا وقابلوا وتحذوا أحياناً بهذه الوسيلة .

- وأخيراً فإن بعض شعراء النقائض قد أحس بعظم جرمه وشناعة ما قذف من أعراض وهتك من ستر المحصنات ، لذا راحوا يثوبون إلي رشدتهم وأعلنوا توبتهم تكفيراً عما قالوا وما فعلوه حتي أن الفرزدق قد تنسك في أواخر أيامه ، وتعلق بأستار الكعبة وعاهد الله ألا يكذب في شعره ولا يشتم مسلماً ما دام حياً .